وداع

جميل لبثينة

للدكتور احمد زكي ابو شادي

كان (جميل) من شعراء الحب العذري النابهين في عهد عبد الملك بن مروان ، وقد أحب حسناء من بنات قومه (بني ربيعة) تدعى (بثينة) ، فكان يشبّب بها . وجرياً على عادة العرب في ذلك الوقت امتنع أبوه عن تزويجه منها لاشتهار حبهما ، فاقترنت بغيره . ولكنه بقي على حبه لها ، ولاقى في سبيل ذلك عنتاً كبيراً حتى تعرّض لاهدار دمه ، كما اضطر الى الفرار الى الشام ، وأخيراً ألى الرحيل إلى مصر . وفي هذا المشهد الشعري الرائع نراه يودّع محبوبته بعد أن استحال عليهما استئناف اللقاء في أمن من الرقباء وأصبحت حياتهما في خطر أكيد.

جميل — (بثينة)! لا أرضى الوداع، وإن أكن ... لأرضى دمائي أن يراق لديك ؟
إلى (مصر) أمضي، إن تركتك ثانياً ... وما لي حظ المرء ياد لديك !
(بثينة)! هل ترضين موتي مكرراً ؟!

بثينة (مقاطعة)... ... ... (جميل) ! حرام أن تعذبني ظلماً!

جميل — إذنْ عذبيني في جوارك فهو لي ... نعيم ولا تقضي إلى العذل والشكوى
في (مصر) تحيي الميتين رسومهم ... ولكن لمثلي الموت كالعيش في البلوى

بثينة — وأين سبيلي يا (جميل) ؟ !

جميل — ... ... أفي الهوى تزوفك عني ؟ !

بثينة (مقاطعة) ... ... بل أذوب غراما !
لئن خانتْ الدنيا ... أمينة على الحب كالأيام الرؤوم دواما
وفي الحشر لن ألقى سوى خلصي وليس سوى الحب النقي شفيعي
أعيش بدين الحب رغم قطيعتي على مضض حتى أردَّ الأعاديا !

جميل — إذن خلِّصيني من عذابي حبيبتي ! ولا توسليني للفناء شريدا !
إذا الشمس ألقت نورها لم يضع سدى ولو ماتَ أحياء الغرام جديدا !
وأما أنا . . .

بثينة — ... ... الله يعلم أنني أُقدِّيك ، لا من يرتضيك شهيدا
(مقاطعة) ويا ليتني أدري ... ...

جميل — ... ... أجل يا (بثينتي) فمارَّ ملامي حين أنت إلهتي
(مقاطعاً) مقدسة في طيِّ قلبي ، وحبها عطورُ دمٍ حيٍّ وحلمُ شفاة
ولكنَّ (أيابثن) الحبيبة ، ما الذي يحولُ عن التفكير في صحتي فورا ؟
ولو شئتُ أودعتُ القصائدَ مهجتي على الرمل ألواناً ، وأطلقتها سكرى
وكانت لهذا الحسن أوفى رثائبٍ إلى مصر حيث الرملُ أزهرُ وافترا
وحيث مياه (النيل) تجري رواقصاً يغازلُ بعضٌ بعضها هائماً حرّا !
هلمي حياتي !

بثينة — ... يا (جميل) كفى كفى ! أتنقذ بالأحلام حبّاً لنا ضاعا ؟

جميل — وكيف يضيعُ الحب في صدر عاشقٍ سما فوق معنى الخلق روحاً وإشعاعا
(مقاطعاً) وكيف وهذي كالنسيم الذي سرى على مرِّ أجيالٍ نشيد خلودِ ؟

بثينة — أأنسيت أني زوجُ من لن يفوتني ولو عشتُ في (المريخ) فوق جبالِ ؟
فكيف دعابي في اصطحابك هكذا إلى (مصر) ؟

جميل — ... ...في (مصر) الأمانُ المحقَّق
فانَّ بنيها للمروءة قدوةٌ وإنَّ بنيها بالمحبة أخلقُ
أحنَّ إليها مستجيباً لدعوةٍ تغنَّى بها السبعُ الجميل المرقرقُ
تعطر من أنفاس (مصر) ونيلها ومن وحيها الفنانِ لنا يتألقُ
ولو أنني لم أحدُ قبلاً بحسنها

بثينة — (جميل)! (جميل)! رحمة منك! إني أعاني من الفجيع والحسرات
(مقاطعة) فلا شيء كالحرمان نار جهنم!

جميل — ... ... إذن عاشي يا مهجتي عبراتي!
(مقاطعاً)

بثينة — ولكنما الحرمان أشهى لمهجتي من العار لا يرضاه طبع نبيل
(مقاطعة مدنيها) وقد يبدع الحرمان روحاً جميلة أحبُّ وأولى في الهوى (بجميل)
وداعاً حبيبي هاهي الشمس ودّعت ولاحت بأطياف المغيب شجوني
وداعاً! فإني باقياً غير لحظة تصاحبني حتى لقياء منوني
وأنظرها حولي مراثي لوعتي وألثام أشجاني وسوت جنوني!

جميل — وداعاً غرامي أصبح اليأس مرشدي وقد كان قبلاً هاجري وخصيمي
(منتحباً) وداعاً! كأنا قد خلقنا لفرقة وأنا دُمي نشقى بكف لئيم
وداعاً حياتي! واسحبي لي بلثمة على قدم يقفو خطاه نعيمي
وداعاً قبيل الليل! فالليلُ قسوة وإن كنت شمساً فوق كل بهيم!

بثينة — وداعاً حبيبي! سوف أبقى وفية بروحي وفاء الزهر للغارس الحاني
(منتحبة) فما أنا إلا أنت مهما مضت بنا تصاريف دنيا لا تدين بإيمان
وداعاً حبيبي ولتكن بعض أدمعي دموعك واكفف دمعك الغالي لعاني
وداعاً فما لي غير دمعة الأسى عزاء! وداعاً يا ملاكي وانساني!

جميل — وداعاً حياتي! سوف أنظر دائماً إليك بمرآة السماء مراراً
وسوف أناجي كل حسن بحوطني لعلَّ به معنى لديك توارى
وداعاً! وداعاً! هذه غاية المنى وداعاً!

بثينة — ... ... وداعاً يا (جميل)!

جميل — ... ... وداعاً!

(النهاية)